فاس

من خلال المخطوطات التونسية *

المرحوم محمد الفاضل ابن عاشور

صاح ، اركب العــزم لا تخلــد الى اليــأس
واصحب اخا الحــزم ، ذا جــد ، الى فــاس

واشرح مــتــون صبــابــاتى لــجــيرتــهــا
وحــى حــيــا بهــم قــد كــان ايــنــاسى

واقــر الســلام على تلــك المعاهــد مــن
حــيران يلفــظــه نــــاس الــى نــــاس

وقــل لهــم : ذلــك المضنى ــ وحقهــم ــ
بــاق على الــعــهــد ذو وجـــد بكم راس

لا يــبــصر الحســن الا فى وجــوهــكــم
وليــس يجــنــح ، فى حــب ، لوســواس

---

*) نظرا لقيمة هذا البحث المنشور بمجلة ((المغرب)) الصادرة عن وزارة الممثل الشخصي لجلالة الملك بالرباط ، فى عددها 7 و 8 ص 8 / 18 ــ دجمبر ــ 1965 . ووفاء لذكرى صاحبه المرحوم العلامة الكبير ، الذي كانت تربطه بالمغرب أواصر فكرية متينة ، رأت ((المناهل)) أن تعيد نشره ، نقلا عن المجلة المذكورة . (المناهل)

كذلك . . . فى الحنين البليغ ، والشوق المستطير كان امـــام تونس الاكبر ، وعالمها الفرد : شيخ الاسلام ابراهيم الرياحى ، سنة 1221 ، يذكر فاسا ، ويبثها وجده ، فيعرب فى هذا الحنين عن عاطفة مـــلأت صدره ، كما كانت تملأ صدور من حولـــه من « الطلبـــة والمشايـــخ » بتونس ، تحبب اليهم فاسا ، وتدنيهم منها بالذكرى والروح ، وتشيع من معانيها ومغانيها اشباحا وارواحا ، يخالطونها ويأنسون اليهـــا ويهيمون بها ، وقد ارتسمت فى اذهانهم بفعل الدروس والطروس ، التى كلمـــا ترددوا عليها وقلبوها ، وجدوا من أسرار فاس وصور معالمها وأطياف اعلامها مازادهم لها معاشرة ، وبها ائتلافا ، حتى أصبحوا يعيشون فيها بالهوى ، ويعرفونها معرفة الوجدان التى تسمو على معرفة الاعيان .

وكذلك . . . كان الشيخ الرياحى وجيله ، قد ورثـــوا هذه العلاقة الروحية عن اجيال قبلهم ، كانوا أيضا قد علقت قلوبهم بفاس ، وتعرفت أرواحهم اليها . فكانت تلك العلاقة غذاء النشـــأة الروحية المتسلسلة ، انطبعت عليها الاجيال بعد الاجيال ، فاصطبغت بها العقول والمشاعر ، ثم أورثوها القرون من بعدهم الى اليوم .

فلست تجد بتونس ، اليوم ، ذا حـــظ من الثقافـــة الاسلاميـــة ، الا ولفاس على لسانه ذكر ، وفى ضميره ذكر ، ان لم يعرفها عن عيان ، فلقد تأثر منها بعلمائها ومعالمها وآثارها واخبارها ، حتى أصبح لها فى نفسه ظهور ، لعله أقوى من ظهور بهجتها للناظر ، حين يطل عليها من مقبرة بنى مرين ، أو يشرف عليها من جبل زالـــغ .

تلك المعانى هى التى لو وضعت موضـــع التحليـــل والتعليـــل ، فضبطت عناصرها ، ورجع بها الى مناشئها ، لتبين أن عشها الذى تبيض فيه وتفرخ ، ثم تبرز منه وتدرج ، انما هو خزائن المخطوطات التى زخرت وتزخر بها العاصمة التونسية . فالذى يطوف بتلك الرياض النضرة العطرة ويجول فيها ، هو الذى يجد حقا روحا مترددا من المدينة الادريسيـــة ، لا يلبث أن يدرك أنه هو الذى كان يخالط قلوب العلماء ، ويملأ جوانبهم ، فتهوى به أفئدتهم الى العاصمة الخالدة : عاصمة الشرف والعلم .

فان الذى يخالط خزائن المخطوطات بعاصمة تونس ، ويأنس بتعاطى جلودها ، وتقليب صحفها ، ومراس خطوطها ، يشعر بمخالطة لمدينة فاس ، والفة بها ، تتربيان فى نفسه ، ناميتين على قدر ما تطول مخالطته لتلك القماطر والدفاتر ، حتى تنشرح نفسه من فاس بصورها المجلوة فى تلك الآثار .

وكيف يستطيع المخالط لمخطوطات تونس أن يحمى نفسه من سحر فاس ، وهو الذى لو حاسب نفسه على ما رات عينه ، ووعى قلبه من تلك الكنوز الغوالى ، لادرك ان نصف ذلك فى الاحصاء ، ان لم يكن اكثر ، يرجع الى فاس ، اما من طريق التاريخ ، أو التأليف ، أو التحقيق ، أو التخطيط . فلا غرو أن يخرج من بين تلك الخزائن وهو ربيب لفاس ، وثيق العهد بها .

فهلم بنا نطف بهذه الاركان الاربعة التى قام عليها صرح المجد الفاسى الروحى : مجد يتجاوز حدود الاوطان ، ويتخطى رقاب الازمان ، وتلك هى العناصر الاربعة :

التاريخ الفاسي
التأليف الفاسي
التحقيق الفاسي
التخطيط الفاسي

التاريخ الفاسي

يبتدىء الطالب ممارسة المخطوطات ، وفى نفسه لمحة من مدينة فاس كما فيها لغير فاس من عواصم الثقافة الاسلامية ، هى اللمحة التى حصلت عنده من مجموعة ما لديه من المعارف الاسلامية ، فلا تزال تلك اللمحة تشرق وتشع وينتشر شعاعها ، بأثر ما تقربه الى فاس المخطوطات التى فى الخزائن التونسية من كتب الادب والتاريخ ، حتى يصبح متأثرا بمناظر فاس ومواقعها ، واقفا على تفاصيل تاريخها ، وكأنه شهد الاحداث ، وشايع العصبيات ، وتردد على المعالم ، وسلك الدروب والازقة ، وانتشق أنفاس الرياض الزواهر ، ونادم الادباء على « وادى الجواهر ».

فحين تأخذه العناية الكبرى التى تحوط النسخ العديدة من تاريخ ابن خلدون ، ومن كتاب المقرى « نفح الطيب » بين مخطوطات جامع الزيتونة الاعظم ، والمكتبة العبدلية ، وما عسى أن يتصل به من الخزائن الخاصة ، أو تأخذه العناية المنوه بها على النسخة الخطية من « أزهار الرياض » فى خزانة الجامع الاعظم ، أو النسخة البديعة التى بخط الشيخ مصطفى رضوان بالمكتبة العاشورية ، ويسرح مع هؤلاء فى الاخبار والاسمار ، لا يخرج الا وهو لاهج ، من فاس : بعدوة القرويين ، وعدوة الاندلس ، والبلد القديم ، والدوح ، وباب الفتوح ، وباب عجيسة ، وباب المحروق ، هائم بالبطحاء ، والطالعة ، والقيسارية ، وسوق الصفارين ، متغن بجامع القرويين : اروقته ، ومنارته وفواراته ، وبالمدرسة البوعنانية ، ومدرسة العطارين ، والمصباحية ، ومدرسة الصهريج ، ومدرسة الحلفاويين ، فيشوقه ذلك الى المزيد من التعرف الى فاس ، فى أخبارها واسمارها ، فاذا هو واجد بين مخطوطات الجامع الاعظم ما يزيده معرفة بتاريخ فاس ، وأنسا بأخبارها ، واعتناء بنكت أسمارها ، اذ يجد : نسخة خطية كتبت فى تونس ، من كتاب « جنى زهرة الآس فى بناء فاس » للجزنائى ، ونسخة خطية من كتاب « الانيس المطرب بروض القرطاس ، فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » لابن أبى زرع ، ونسخة من « رحلة » أبى سالم العياشى ، ونسخة من « محاضرات » اليوسى ، ومن « الاجوبة الناصرية » له ، ونسخا عديدة من « رسائل » اليوسى الى السلطان المولى اسماعيل ابن الشريف بالزيتونة وبالعبدلية ؛ وكذلك يستكمل الصور التفصيلية لخطط فاس ، ودقائق الحياة فيها ، بما يكون فيه « ذوقا » خاصا يصل ما بينه وبين فاس ، مالا تصله الرحلة اليها ، بل ولا السكنى فيها .

التاليف الفاسي

نشأت مدينة فاس عاصمة عربية هاشمية ، سنية مالكية ، واخلصت لنشأتها فأسرع اليها ما يسرع الى نجباء الابناء من المحن فى سبيل الوفاء بحق أصولهم ، فنهضت فى وجه المحن ، وكان ذلك هو الذى زكاها ، كما يزكو بالمحنة كل ذى عرق أصيل .

فلم تكد فاس تقعد من نهضتها فى وجه الفتن ، التى نشبت فى غمارة وبرغواطة ومكناسة ، ثم من موقفها الثابت ضد الحكم العبيدى ، الا منتصف القرن الرابع ، فبرزت حينئذ حقيقة الروح التى قامت عليها المدينة ، فى الزهرة العلمية السنية التى أينعت بالامام دراس بن اسماعيل ، وقد تخرج بالقيروان ، وأقام بفاس ، فأصل السنة والفقه فى فاس ، وأشاعهما عنها ، فاتصل به ما بين فاس وبين القيروان والمشرق العربى ، وبين الاندلس ، اتصالا نشأ عليه ابن عمران الفاسى الذى انتقل من فاس الى القيروان ، فأتم تخرجه فيها حتى أصبح امامها .

وبذلك استقام المحور الرابط بين فاس وافريقية بصورة أحكمت الاتصالات الفكرية ، والمقابسات العلمية ، على نحو مطرد : من وحدة المنهج ، ووحدة العمل . وتوالت على فاس رجات زعزعتها ، ومادت بها ، ومالت بالامن والامر عنها ، على عهد المرابطين ، ثم على عهد بنى عبد المؤمن ، الى أن عاودتها زهرتها بقيام الدولة المرينية ، التى أرجعت اليها تخت الملك ، فى منتصف القرن السابع .

ومن هذا التاريخ يبتدىء الدور العظيم الذى كان لفاس ، فى اشعاعها بالروح العلمية التى لم يزل مضيئا بها قلبها ، بعد أن كسفتها الحوادث ثلاثة قرون ، دون الاشراق فى الآفاق . وصادف ذلك ظهور زهرة مدينة تونس ، بانتقال العاصمة الافريقية اليها ، وظهور عظمة الدولة الحفصية . فكان القرن السابع قرن الزمالة المستحكمة بين المصرين العظيمين : انتعشت الحركة العلمية بجامع القرويين وبجامع الزيتونة ، واكتملت لكل منهما هالة من المدارس العلمية حوله ، بما تلب العاصمتين : المرينية والحفصية ، الى مدينتين جامعيتين . واطردت العلاقات العلمية بين رجال المصرين على المنهج التعليمى الجامع ، الذى برز به فى تونس : أضراب ابن زيتون ، وابن عبد السلام ، وابن عرفة ، وابن خلدون ، وتجاوب فيه معهم فى فاس : أمثال ابن الصباغ ، والمقرى الكبير ، وتلك الحلبة التى نود بها ابن خلدون فى التعريف بنفسه ، حتى تجلت علوم كل من العاصمتين ، وتصدر رجال كل من الجامعين الاعظمين : الزيتونة والقرويين ، للتدريس فى الجامع الآخر ومدارسه ، واشترك فى التخرج على أساتذة المدينتين طلبة من هنا وهناك .

وبذلك تأصلت لمدينة فاس منزلتها العلميــة فى المحيــط التونسى ، وبدأت الاوضاع الفاسية تشيع ، ويعظم قدرها .

وكما تواصلت الروابط بين أيمة العلم ، فشاعت التآليف العلمية الفاسية بتونس ، تواصلت الروابط كذلك بين أيمــة التربية الصوفية ، باتحاد طريق السلوك على الخطة السنية الجنيدية التى اخذها الشيخ أبو مدين عن الامام عبد القادر الجيلى ، ودرج عليها تلاميذ أبى مديــن الفاسيون ، مثل أبى عبد الله ابن حرزهم (الاصغــر) والشيــخ عبــد السلام بن مشيش ، وتلاميذه التونسيون ، مثل أبى سعيد البلاجي وعبد العزيز المهدوى . وبهؤلاء وهؤلاء سلك الامام أبــو الحســن الشاذلى ، وجمعت حياته وطريقته بين القطرين ، قبل أن تنتشر بالمشرق والمغرب ، فكان التواصل فى الطريقــة الشاذلية ، من عهــد أصحابــه وأصحاب أصحابه ، بتونس وفاس ، بين المؤلفين فى طريقته ومناقبه والشارحين لأحزابه الى القرن الماضى .

وجاء القرن التاسع بأحداثه وأزماتــه ، وعظمت فيــه مشكلــة الاندلس ، وبدت طلائع الخطر الحائق ببقية دولة الاسلام فى غرناطة ، وتقاطر اللاجئون الاندلسيون على البلاد المغربية ، وبدت نــذر التدهور الاقتصادى والسياسى ، وحدثت للناس فى حياتهم الاجتماعية أقضيـــة فقهية على قدر ما أحدثوا ، فتطلعوا الى قضاء عادل بصير بالاحوال ، يتصرف بالاختبار ، وحسن التطبيق ، وتحقيق مناط الاحكام ، وتوجهوا الى « البلدة الغراء فاس » فوجدوا من فقهائها عملا قضائيا جاريا على ما يلائم التطلعات الاجتماعية ، واصبح « قاضى فــاس » ابــو الحسن الزقاق يجمع المسائل التى جرى فيها العمل بفاس على خــلاف المشهور من المذهب المالكى « لما قد فشى من قبح حال وحيلة » ، فاتخذ « العمل الفاسى » مرجعا فى الاقطار الافريقية ، واعتمد فقهاء تونس على فقهــاء فاس ، يدرسون كتبهم ، ويجمعون فتاويهم ، ويتنافسون فى رسائلهم ، فطلع عليهم الونشريسى بالمعيار ، وأبو الحسن الصغير بتقييــده على المدونة ، وابن غازى بتكميله للتقييد ، واتصلت تلك الآثــار الفقهية من قريب أو من بعيد : من كتب السنوسى فى العقائد وكتب الشيخ احمــد

زروق البرانسى فى الحديث والفقه والتصوف ، وكتب الشيخ الجزولى وأحزابه ، ولاسيما كتابه الذائع الشهرة « دلائل الخيرات » وكتب ابن غازى وضوابطه ، وتقييد الهبطى لوقف القرآن ، وكتب ابن المرابط فى النحو .

واستهل القرن الحادى عشر بالشيخ يوسف الفاسى ، وأخيه عبد الرحمان ، فعمت شهرتهما فى العلم والصلاح ، وتأيدت بشهرة الذين تتابعوا عليها فيما بعد من آل الفاسى الفهريين ، مثل الشيخ عبد القادر الفاسى الذى ملأت حياته هذا القرن كله ، كما عظمت شهرة الشيخ عبد الواحد بن عاشر بكتبه فى الفقه والقراآت وغيرهما ، وذاع صيت أبى العباس المقرى غربا وشرقا ، واشتهر أبو محمد ميارة وكتبه . وختم القرن الحادى عشر بركنى العلم والادب : اليوسى وابن زاكور ، وامام السلوك : الشيخ محمد بن ناصر الدرعي .

ورسخت سمعة فاس الفقهية ، فى القرن الثانى عشر ، باختصاص أيمة الفقه المالكى بفاس ، بتحقيق المذهب ، وتصحيح نقوله ، والرجوع الى أمهات الدواوين ومجاذبة الانظار مع كبار فقهاء المذهب المالكى بمصر من أهل القرن الحادى عشر ، وتقويم مباحثهم ، وذلك ما ظهرت به كتب الشيخ ابن رحال ، فى تعقيبه لشراح المختصر الخليلى : الاجهورى ، وتلاميذه الشبرخيتى والخرشى والزرقانى ، وذلك ما اشتهر به الشيخ محمد بن الحسن بنانى ، والشيخ محمد التاودى ابن سودة ، والشيخ علي التسولى ، والشيخ محمد الرهونى ، حتى أصبح الفقه المالكى عالة عليهم ، لا يستقيم بحث فقهى ، بالغرب وبالشرق ، الا على طريق تحاريرهم .

واشتهر فقهاء فاس بالبراعة فى القضاء ، حتى أصبح المثل السائر فى تونس يضرب للقضايا المعقدة بقولهم : « ما يحلها قاضى فاس » .

وظهرت فى فاس نزعة جديدة فى الفقه وأصول الدين : هى السلفية التى أشاعها السلطان المولى محمد ابن عبد الله ، والف بها كتبه ، وسار عليها ابنه المولى سليمان ، وناصرها كثير من العلماء ، فاهتم بها فقهاء تونس ، وعلت بها منزلة السلاطين العلويين فى نظر الخاصة والعامة

بتونس ، بما جمعوا الى نسبهم الزكى ، ومنصب سلطنتهم ، من شرف الامامة العلميــة .

واجتمعت لفاس مع سمعتها العلمية بتونس ، سمعة اخرى رفيعة ، فى صناعة الحديث والاسناد ، وعلت السمعتان معا بمقدم الشيخ احمد المكودى ، وهو تلميذ الشيخ الحريشى والشيخ احمد بن مبارك . فاستقر بتونس وولى الافتاء بها ، ووصل أسانيدها من طريق شيخه ، بأسانيد الشيخ عبد القادر الفاسى .

وبأثر هذه الصلات المتأكدة تواصلت الرحلات بين القطرين بمـــا ربط الاسانيد ، وجمع بين الافكار والانظـــار : فى رحلـــة الشيخ ابراهيم الرياحى ، والشيخ محمد المناعى ، الى المغرب ، ورحلة الشيخ التجانى ، والشيخ محمد القصرى ، وابن عبد الله الفـــاسى ، والشيـــخ محمد بن التهامى العربى الرباطى ، الى تونـــس ، ومـــا تفـــرع على ذلـــك من الصـــلات والمـــآخـــذ .

فهذا ما يوضح لنا أن مدينة فاس ، منذ أن استقر أمرها فى القرن السابع ، لم تزل منار العلم ومداره ، توالت عليهـــا سبعة قرون وهى عالية السمعة ، مشرقة الطلعة ، فى البلاد التونسية . وذلـــك هو الذى يراه رأى العين ، الممارس لخزائـــن المخطوطات فى الحضرة التونسيـــة الـــخـــضراء .

فانه من المعروف أن الكتب لم يبدأ شملها يجتمع بتونس ، وخزائنها تعمر ، الا من أوائل القرن الحادى عشر ، بعد نكبة الاحتلال الاسبانى التى أصابت البلاد التونسية ، فذهبت بطارفها وتليدها فى القرن العاشر . فلا غرو كانت المكاتب ، التى تكونت فى عصر الدايات والمراديين ، قـــد تكونت وسمعة فاس العلمية التى استعرضناها ، سمعة مكينة سامية ، فكان لذلك مظهره الواضح فى تكون تلك المكاتب ، اذ جمعت من التآليف الفاسية ما يتنافس فيه المتنافسون ، سواء فى ذلك خزائن المســـاجـــد والمدارس ، أو خزائن القصور الملكية ، أو بيوت الاسر العلمية .

فمن خلال تلك الخزائن يرى المطالع ما كان للتونسيين ، فى عهد تكونها من العناية بالتآليف الفاسية التى وضعت فيما بين القرن السابع والقرن التاسع ، حين لا يكاد يجد خزانة ذات اعتبار ، من الخزائن العامة والخاصة ، الا وهى مشتملة على الاقل ، على الاجرومية ، وناهيك بشهرتها ، وعلى نسخة أو نسخ من تقييد ابى الحسن الصغير على المدونة . وفى مكتبة والدنا منه نسخة شرقت وغربت وعادت من مصر الى تونس وعليها خط الشيخ سالم السنهورى ، ولا يكاد يجد خزانة أيضا الا وهى تشتمل فيما تشتمل عليه من كتب الامام المقرى الكبير ، على نسخة من كتاب « القواعد » بل يجد الخزانة الام : خزانة جامع الزيتونة الاعظم قد أسس فيها فن باستقلاله ، عنوانه فى الفهرس « مبحث القواعد الفقهية » على كتاب المقرى وما اتصل به وبنى عليه من تآليف الفاسيين : الونشريسى ، والزقاق والمنجور ، وميارة ، وحين يجد نسخة تونسية ، كتبت فى القرن التاسع ، من شرح القباب على قواعد القاضى عياض ، هى عندنا فى مكتبة سيدى الوالد أبقاه الله .

ويتتبع آثار الامام الشاذلى فيجد فى جامع الزيتونة وحده ، نسخا عديدة من كتابه « القصد الى الله » وعشرات المخطوطات النفيسة من الصلاة المشيشية والاحزاب الشاذلية مفردة ومجموعة ، الى ما عليها من الشروح الفاسية الكثيرة : شروح زروق ، وعبد الرحمان الفاسى الاكبر ، وبنانى ، وابن عجيبة ، ونسخا كذلك من شرح ابن عباد على الحكم (بله ما بعده من مثل شرح جسوس ، وشرح ابن كيران) .

ويمر المطالع الى القرن العاشر ، فيحس بأن التراث الفاسى نما وتكاثر ، حين تطالعه النسخ الخطية التى لا تكاد تحصر من كتب الزقاق : اللامية والمنهج المنتخب وكتب الونشريسى ، وفى مقدمتها « المعيار » وقد تعددت نسخه التامة فى جامع الزيتونة ، على طوله ، زيادة على الاجزاء المفردة ، والنسخ الملفقة ، وعلى مختصراته ، ومنها نسخة من اختصار المجليدى عندنا ، واخرى من اختصار الشيخ التسولي ، لعله من تأليفه . ومن كتب ابن غازى فى القراآت ، والحديث ، والفقه والنحو، والحساب ، والتاريخ ، منها منظومته التى عنوانها رجزا :

بالعبدلية ، من احباس الامير على باشا الحسينى على مدرسته ، وتكميل التقييد بجامع الزيتونة ، وحاشية البخارى بجامع الزيتونة ايضا .

ومن كتب السنوسى نسخ تعد بالعشرات : من صغرى الصغرى ، والصغرى ، والوسطى ، والكبرى ، والمقدمات ، وعليها من الشروح والحواشى (منها حاشية المنجور اليوسى ، بالعبدلية كتبت أوائل القرن الثانى عشر) .

وما يزال المطالع يمشى مع آثار القرن العاشر اذ يستعرض كتب الشيخ احمد زروق : شرح البخارى ، وشرح الارشاد ، والنصيحة الكافية ، وكتاب تقيد وقف القرآن للهبطى ، حتى تشرق له انوار الشيخ البديعة من دلائل الخيرات للشيخ محمد بن سليمان الجزولى ، التى هى حلية كل خزانة .

ويجتاز عتبة القرن الحادى عشر ، فاذا هو امام نسخ من أراجيز ابن عاشر : مورد الظمآن ، والمرشد المعين ، بما يحوطها من آثار الشهرة والعناية ، ورسائل على الشيخ ميارة ، وشروحه على المرشد المعين وعلى لامية الزقاق ، وشرح ابن المرابط على التسهيل ، وهو من نفائس خزانة جامع الزيتونة ، وقد كان ، على عزته ، عمدة الدراسة منذ القرن الثانى عشر ، واختصره الامير علي باشا ابن محمد ، واختصاره فى الزيتونة ايضا .

واذا هو امام كتب المقرى ، الجامعة المتعة ، غير التى مضى ذكرها ، واشرفها : كتاب « فتح المتعال بوصف النعال » ونسخته فى الزيتونة نسخة ذات قيمة يعز فيها نظيرها فهى بخط الامام ابراهيم الرياحى ، ابدع فى ضبطها ، وتحقيقها ، وتخطيطها وتزويقها ، وفى مكتبتنا منه نسخة كتبت بفاس فى حياة المؤلف ، سنة 1034 بعد رحلته الى المشرق ، عن الاصل الذى بخطه ، وكتب الامام الفذ ابى علي اليوسى : حاشيته الكبرى ، ورسالته فى جواب المولى اسماعيل ، ومنهما نسخ

عديدة بالزيتونة وبالعبدلية ، وكتب امام اللغة والادب محمد بن قاسم ابن زاكور : ديوان شعره فى المديح النبوى الشريف ، وعدة من رسائله ، وشرحه على ديوان الحماسة ، وشرحه على لامية العرب ، وهى موجودة كلها فى الزيتونة وغيرها ، ونسخة من شرحه على قلائد العقيان، هي مسودته التى بخطه بمكتبتنا .

ومن كتب آل البيت الفاسى : كتب الشيخ محمد ابن عبد القادر ، والشيخ عبد الرحمان بن عبد القادر ، وأشهرها نظم العمل الفاسى ، الذى لا يخلو منه بيت فقيه ، والشيخ محمد المهدى الفاسى ، ونسخ شرحه على دلائل الخيرات كثيرة جدا ، بالزيتونة والعبدلية والمكاتب الخاصة ، وكتابه فى السيرة النبوية الذى سماه « سمط الجوهر الفاخر ، من مفاخر النبىء الاول والآخر » ومنه بالزيتونة نسخة اصلية جليلة كتبت سنة 1098 ، بخط محمد المهدى بن احمد بن محمد بن يحيى بدار مؤلفه ومحضره ، وفى آخر النسخة شهادة بخط المؤلف بسماع الشيخ عبد الرحمان الزمرانى الكتاب عليه واجازته فيه وفى جميع تآليفه وبسنده عن الشيخ محمد العربى الفاسى عن أبى عبد الله القصار . ويجعل هذه النسخة الجليلة مسك ختام القرن الحادى عشر .

فاذا انتهى الى القرن الثانى عشر ، وجد مظاهر الصلات المطردة قد عقدت بين القطرين وحدة شاملة ، واحضرت فاسا حضورا باديا فى كل فن من فنون العلم . يلحظ ذلك فى اجازة الشيخ احمد بن مبارك السجلماسى للمكودى بخطه ايضا ، وفى ما اشاع مقدم الشيخ المكودى من رسائل الشيخ ابن مبارك النفيسة العديدة المسماة فى اجازته ، ومنها الكثير بالزيتونة والعبدلية وغيرهما من المكاتب الخاصة وبعضها بخطه .

كما يلحظ آثار العناية التونسية بالنهضة الفقهية فى فاس : فى شرح ابن رحال على المختصر ، بسخته المغربية الجليلة ، ذات الخمسة عشر جزءا بالزيتونة ، زيادة على النسخ الاخرى الملفقة بالزيتونة والعبدلية ومكاتب اخرى ، وحاشيته على شرح ميارة على العاصمية فى الزيتونة وفى كثير من المكاتب الخاصة وحاشية الشيخ محمد بن الحسن بنانى

علي الزرقانى فى نسخة الزيتونة المنقولة عن مبيضة المؤلـف والمقابـلة عليها ، والنسخ العديدة الاخرى منها فى الزيتونة وغيرها .

ويلحظ ذلك بصورة اجلى ، فى العناية بالشيخ التاودى ابن سودة وكتبه ، وما ينوه به تلميذه التونسى الشيخ محمد بن سليمـان المناعى ، فلا حديث عن شرح التاودى على العاصية وشيوع نسخه المتقنة ، ولكن نذكر شرح الزقاقية بالزيتونة وغيرها ، وحاشيـة الزرقـانى بالزيتونـة وبمكاتب اخرى خاصة ، وشرحه على جامع المختصر الخليلى بالزيتونة ، ونسخة من كناشه بالزيتونة أيضا .

ويلحظ ذلك أيضا فى مخطوطات حاشيـة الرهونـى على الزرقانى بالعبدلية وغيرها ، الى تمام السلسلة فى كتب التسولى : شرح التحفة ، وحاشية شرح الزقاقية ، ومجموعة فتاويه وفتاوى شيخه التاودى ابن سودة ، ومنها مجلد بخطه فى خزانة استاذنا المنعم سيدى لى الحسن النجاء التى آلت الى المكتبة العبدلية . ويتبـع هذا مظهـر من عنايـة التونسيين بتلك الاوضاع الفقهية المهمة فى حاشية الشيخ حسن الشريف على شرح ميارة على اللامية ، وحاشية الشيخ احمد بن لطاهر والشيخ محمد ابن سلامة على التاودى ، وجميعها بخزانة جامع الزيتونة .

ويلحظ من جهة اخرى ، آثار الحركة السلفية لتى قام بها المولى السلطان محمد بن عبد الله فى النسخ من تآليفه الكثيرة التى اشتمـل عليها مجموعان بخزانة جامع الزيتونة : احدهما فيه جامـع المسانيد ، ورسالة فى آداب التعليم وغيرهما ، كتب على بعضها انه النسخة الاصلية التى وجه بها المولى السلطان الى الشيخ التادى ، والمجموع الآخـر مجلد فاسى عظيم القيمة ، بديع التذهيب والتخطيط والتزويق ، به كتاب « سمط الجواهر واللئالى فى ما اشتمل عليه تـاب الاحياء للغـزالى » وخمس رسائل تابعة له ، وعليه توقيفات بخط مؤلـفه المولى السلطان نـفـسـه .

ويلحظ اثرا ذا بال من صلة الطرية الناصرية بالبلاد التونسية فى اجازة الشيخ يوسف بن محمد ابن محمدبن ناصر الدرعي للباشا علـي

بن حسين ، اجابة لطلبه ، وتأكيدا لما سبق للباشا من انتساب الى الطريقة بواسطة السيد عبد الحفيظ ، وهى فى جامع الزيتونة . واثرا يتبع هذا ، فى القرن بعده ، من صلة الطريقة التجانية بتونس فى اجازة الشيخ ابراهيم الرياحى للشيخ احمد بن الطاهر سنة 1244 وفيها بخطه : « اجزت بها حبيبنا الشيخ ابا العباس احمد ابن الشيخ سيدى الطاهر اللطيفى كما أجازنى بها شيخنا ابو العباس رضى الله عنه واجازة الشيخ الرياحى أيضا بسنده فى البخارى عن الشيخ الامير السلوى عن الشيخ عمر بن عبد الصادق والشيخ محمد بن عبد الهادى التطاونى . مظهر من مظاهر الصلات الاسنادية بصورة عامة ، وهى التى أجاز بها الامام الرياحى تلميذيه شيخى الاسلام محمد ابن الخوجة واحمد ابن حسين .

وهكذا يستمر للاسناد مظهره فى وثائق الاجازات ، مترجما عن حضور مكين لفاس بتونس ، فى مثل اجازة الشيخ محمد بن التهامى للشيخ محمد ابن الخوجة سنة 1243 ، واجازة الشيخين عمر واحمد ابنى الشيخ الطالب ابن سودة للشيخ سالم بوحاجب . فى حين تنقطع مخطوطات الكتب عن الشهادة بذلك ، وقد صالت عليها صلصلة الطباعة .

التحقيق الفاسي

فى الوقت الذى كان ابن خلدون يشكو فيه انقطاع صناعة الخط والضبط والرواية من المغرب ، ويتحرق على « ان الامهات والدواوين صارت تنسخ بالخطوط البدوية تنسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف » كانت فاس قد بدأت تصل ما انقطع من تلك الصناعة ، وتعاود ما ذهب من رسومها .

وكانت مبادىء هذا الانبعاث فى حياة ابن خلدون من حيث لم يشعر بها . وذلك بأن الاندلس ، التى يشهد ابن خلدون نفسه بأن اثارة من صناعة الوراقة قد بقيت فيها ، كانت قد انتقلت بمعظمها ، كتبا وكتابا ، الى فاس ، فى ما يحدثنا به صاحبنا ولى الدين عن كثرة الخارجين من الاندلس الى المغرب فى دولة بنى مرين ، وغلبة صنائعهم الخطية هنالك ،

ثم ما حدثنا به أيضا عن السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني من مطالبته الطاغية سانجه بتسليم كتب العلم التى بأيدى النصارى منذ استيلائهم على مدن الاسلام ، فبعث منها ثلاثة عشر حملا وقفها السلطان على المدرسة التى اسسها بفاس ، ثم ما ذكره من اعتناء السلطان ابى الحسن المرينى بنسخ المصاحف بخطه وتكليف القراء بضبطها وتهذيبها . فاذا أضفنا هذا الى ما ورد فى خطبة مقدمته من التنويه بخزانة الكتب التى أوقفها السلطان أبو عنان المرينى لطلبة العلم بجامع القرويين ، وهى التى وجه اليها بالنسخة الشهيرة من تاريخه من المشرق ، تبين لنا أن مدينة فاس ، منذ برزت بمظهرها المشرق فى التأليف ، قد كان للعناية بأصول الدواوين واستجادة نسخها ، والاهتمام بأصالتها وصحتها ، والحرص على ضبطها ، ما يضارع الهمة العلمية البادية فى التأليف والتحرير .

وقد تأكدت هذه العناية بأن فاسا لم تزل دار حديث ورواية ، وان صناعة الحديث فى العصور المتأخرة انما تتمثل فى الضبط والمقابلة وتصحيح الروايات كما ذكر ابن خلدون ، وكان ذلك هو سبيل العلم عند الفاسيين ، كما ذكر المقرى فى أزهار الرياض ، نقلا عن بعض معاصريه .

ولا شك فى أن بقاء الاصول الجليلة من أمهات كتب الاسلام فى فاس قد قوى هذه العناية ونماها .

وكفى من ذلك نسخة البخارى « الشيخة » التى نقلها أبو عمران بن سعادة عن نسخة أبى علي الصدفى ، واعتمدها الناس منذ القرن السادس بالاندلس والمغرب للنسخ والمقابلة . وقد شاعت فى المخطوطات التونسية النسخ المأخوذة منها ، والمقابلة عليها ، واجلها النسخة المكتوبة بتخطيط بديع وتذهيب سنة 838 لخزانة الوزير على بن يوسف الوطاسى ، وبآخر كل جزء منها أنه مقابه على نسخة ابن سعادة التى عليها خط أبى على الصدفى ، ويوجد منها جزآن فقط من خمسة أجزاء بمكتبتنا . واكثر نسخ البخارى بتونس ، وأعظمها قدرا ، هى النسخ الفاسية المنقولة عن نسخة ابن سعادة ، وتبتدىء على الطريقة المتبعة فى ذلك ، بالحديث عن أبى على الصدفى بسنده الى البخارى مكتوبا بعد الترجمة الاولى ، وهى مجزأة فى الاكثر الى خمسة أجزاء كتجزئة ابن سعادة ، ومنها نسخ

عزيزة فى مجلد واحد : خمس منها بجامع الزيتونة ونسخة بالعبدلية وفرائد اخرى ببعض الخزائن الخاصة .

كما توجد نسخ اخرى من البخارى مصححة ومقابلة على غير نسخة ابن سعادة . ولكنها فيما يظهر راجعة اليها بواسطة ، مثل نسخة بخط محمد بن عبد العزيز الحلو ، ذات اجزاء بالعبدلية ، مقابلة على اصل بخط الشيخ المهدى الفاسى .

وبهذا اشتهرت كتب الحديث المخطوطة بفاس بالصحة والاتقان والضبط ، وأصبح الاعتماد عليها شائعا ، والتنافس فيها شأن أصحاب الخزائن .

فقد كان الامير علي باشا بن محمد المتوفى سنة 1170 من عنايته بالكتب ، وحرصه على الاصول الصحيحة المضبوطة ، أرسل رجالا الى فاس يشترون له الكتب ، وبذل فى ذلك بذلا طائلا كما ذكر فى تاريخ « المشرع الملكي » . وهذا الامير هو الذى انشأ خزائن عظيمة بالمدارس الاربع التى احدثها بتونس ، رجع الكثير منها الآن الى العبدلية ، وجمع لنفسه خزانة عظمى فى قصره بباردو ، وهى التى حبسها المشير احمد باشا على جامع الزيتونة سنة 1256 .

واشتملت هذه المكاتب ، وغيرها من المكاتب التونسية ، على أصول مصححة مقابلة من كتب التفسير والسنة وكتب العربية ، بحيث أن نسبة المخطوطة الى فاس تشير غالبا الى صحتها واتقان ضبطها ، فنجد فى خزانة جامع الزيتونة نسخا فاسية كثيرة من صحيح مسلم ، وسنن أبى داود ، والترمذى ، والنسائى ، وكلها صحيحة معتمدة ، ونسخا كذلك من الموطأ ، وشيئا كثيرا من كتب الفقه المالكى القديمة : مثل التهذيب والبيان والتحصيل ، والحديثة المشرقية التأليف : مثل شرح الخرشى وشرح الزرقانى على المختصر ، فضلا عن التآليف المغربية الحديثة ، التى منها ما هو بخطوط المؤلفين ، ومنها المقابل على أصولهم .

التخطيط الفاسي

استتبعت العناية المرينية بتصحيح الكتب وضبطها عناية بتجويد الخط ، وتجميل الطوالع ، واظهار التراجم والمقاطع ، وابداع التزويق والجدولة والتلوين والتذهيب . وذلك ما ورد فى أخبار مصاحف السلطان ابى الحسن وما وفر لها من آيات الجلال والجمال .

وبذلك كان للوراقة مكانها السامى من بين مظاهر الحياة الفاسية . واعانت سعة الحضارة وضخامة الدولة ، من جهة ، ورقة الذوق الفاسى من جهة أخرى ، وتأثير الخطاطة والوراقة الاندلسيتين ، من جهة ثالثة ، على أن أصبح الكتاب موضوع عمل فنى رقيق ، يبدو فيه الذوق السليم ، والصناعة الرشيقة والبذل الواسع . وقد اكتملت لمدينة فاس أسباب الاتقان الفنى للكتاب من جميع هذه النواحى حتى أصبحت تقصد لطلب الكتب من حيث جمال المجلدات ونفاستها ، كما تقصد لطلب التأليف المهم والضبط الصحيح ، حتى أصبحت الكتب المخطوطة بفاس ، على تفاوت مراتبها ، ذات كثرة غالبة على مخطوطات المكتبتين الزيتونية والعبدلية .

ولا عجب أن تتأثر صناعة الوراقة لما يرقيها ويفننها مما تأصل فى العهد المرينى ، وتتابع فى العهدين الشريفين السعدى والعلوى ، من الاجادة الفنية ، والبراعة الصناعية فى أشكال الزخارف ، واتقان وضعها ، وأناقة صنعها ، فى البناء ، والنسخ ، والترصيع ، لاسيما صناعة الدباغة ، وتنميق الجلود ، وتذهيبها ، التى طار صيت المملكة المغربية بها شرقا وغربا .

ولعل وفرة الذهب بالمغرب فى العهد المنصورى ، بعد فتح السودان قد أعانت على ذلك .

وكان القصد الى فاس فى استجادة النسخ المفننة من الكتب المعتبرة قد نشط هذه الصناعة وفتح لاربابها مناهج الاتقان ، وشحذ أذهانهم لمزيد الابداع . فانثالت على تونس ، فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، الكتب الفاسية المبدعة فى التخطيط ، المعجبة فى التلوين

والتزويق ، الباهرة التذهيب ، الرائقة التجليد ، وبها ازدانت الخزائن التونسية فى هذين القرنين : من المصاحف الشريفة ، ونسخ البخارى وسائر الصحاح ، وكتاب الشمائل ، وكتاب الشفاء ، وكتاب دلائل الخيرات ، وكتب اللغة ، ودواوين الادب .

وانتشرت بتونس شهرة الكاتب المجيد المتقن محمد بن عبد العزيز الحلو ، فى صدر القرن الثالث عشر ، وتنافس الناس بتونس فى آثاره ، وشاركه فى شهرته رجال ونساء من آله عرفوا جميعهم بالخط الفائق المتحد حتى ان الواحد منهم يكمل عن الآخر فلا يتمايز الخطان . فأصبحت خطوط « أولاد الحلو » أنفس المكاسب عن أهل المكاتب .

وبالزيتونة نسخة من البخارى فى مجلد واحد برواية ابن سعادة عن الصدفى هى غاية فى الصحة ، وجمال الخط ، وبديع الطوالع والتزاويق ، وروعة التلوين والتذهيب ، كتبها محمد بن عبد العزيز الحلو سنة 1227.

واخرى بالعبدلية كتبها هو بنفسه سنة 1221 وكلتاهما مجلدة باتقان فى احكام الربط ، وحسن التجويف والتلوين والزخرفة وفنون الترصيع بالذهب الابريز الملون ، ومكتوب على لسان السفر فى كل منهما بالحرف البارز فى الجلد « الجامع الصحيح للامام البخارى » .

ولخطوط آل الحلو نسخ كثيرة من دلائل الخيرات فى قوالب مختلفة ، منها الصغير جدا ، وبخطوطهم ايضا مجاميع خفيفة المحمل فيها دلائل الخيرات والحصن الحصين والاربعون النووية واحزاب للشاذلى وغيره والحكم والبردة والمختصر الفقهى للشيخ عبد القادر الفاسى وغيرها ، يسعها الكف ، وتحمل بسهولة فى الجيب ، عندنا منها واحد ، تجليده فاسى ، مكتوب عليه بالبارز فى الجلد .

وبخطوط غيرهم كذلك نفائس : منها نسخة من الشفاء فى خزائن يجمعها مجلد واحد على طراز نسخة البخارى ، بجامع الزيتونة ، كانت من الخزانة الملكية بقصر باردو ، ونسخة من شرح القسطلانى على البخارى ، فى عشرة أجزاء ، نسخها الطاهر بن عبد السلام المدعو ابن

موسى الفاسي سنة 1281 ، به طوالع مزوقة وجداول مذهبة بالعبدلية ، ونسخة من شرح الحصن الحصين للشيخ محمد بن عبد القــادر الفاسي بخط جميل ، لم يذكر اسم ناسخها ، ونسخة من شرح الشيخ المهـــدى الفاسي على دلائل الخيرات فى جزءين ، مذهبــه الطوالــع والجــداول وصورة الروضة المشرفة . فكفى بها لمحة شريفة فى المخطوطات التونسية.

تــونـــس **محمد الفاضل ابن عاشور**